لقد نجحت وادين في تحليل الخطاب السائد والفن المعارض، والتباس أو هشاشة سيطرة النظام السوري، لكنها لم تستطع أن تمد جسراً يصل بين الفكرة الأساسية عن أهداف النظام من هالة التقديس وبين المطاوعة من طرف المواطن، وهنا، نرى حدود منهج التحليل الذي يتفادى التحليل المادي التاريخي.

عمر سامي ضاحي
أستاذ الاقتصاد في جامعة هامشير في الولايات المتحدة

الممارسات الثقافية للشباب العربي

تحرير عزّة شرارة بيضون، وطفاء حمادي، مود إسطفان هاشم، نازك سابا يارد

بيروت: تجمّع الباحثات اللبنانيات، الكتاب الرابع عشر، ٢٠١٠. ٥٧٥ صفحة.

يطرح هذا الكتاب على قارئه إشكالية الخطاب البحثي العربي في مواجهة واقعه، وخصوصاً في ضوء انتفاضات العالم العربي ضد أنظمته. فالكتاب الذي أُعد خلال سنتَي ٢٠٠٩ و٢٠١٠، يجمع عدداً وافراً من الدراسات والشهادات، غير أن قلّة منها تتجاوز ضآلة التحليل وركاكة التعبير وبديهية الخلاصات (لا غرابة في أن الانتفاضات أتت على حين غرة ومن دون توقع)، كي تقدم لقارئها فهماً أوفر للتحديات التي يواجهها الشبان العرب، وللقدرات التي يمتلكونها لتجاوز الواقع الحالي. ونحن لن نتوقف مطولاً في هذه المراجعة أمام خلاصات تكرر ما هو بديهي، أو تكتفي بأدنى وصف لموضوعها، ولا أمام شهادات تكرر اللغة الموروثة والدروس الأخلاقية المزعومة نفسها، وإنما سنحاول قراءة بعض المحاور التي يشي الكتاب بها، والتي يمكن تلخيصها بتخطي قلق الهوية، واستعمال الإنترنت والشبكات الاجتماعية الافتراضية لتطوير قراءات جديدة من جانب الشباب تسمح لهم بالتفاوض بفاعلية مع محيطهم كي يتفاعلوا مع تعدد المؤثرات المحيطة بهم (ثقافياً واجتماعياً ووطنياً وطبقياً ولغوياً.. إلخ)، والتي تشكلهم، أكان ذلك رفضاً أم قبولاً.

القراءة في العالم الرقمي وشبكاته

تشير الباحثة البحرينية فاطمة علي، في مقالتها: "عطفاً على الشباب والفايس بوك وما بينهما ـ حالة البحرين" (ص ٢١٢) إلى ثلاثة عناصر قادرة على توليد الثقافة والإبداع، ويؤمّنها الفايس بوك والمجال الرقمي، هي: "الشفافية، والتشاركية، والحرية"، بحيث تنعكس هذه العناصر على ما تحتضنه صفحات الشباب في الفايس بوك من نتاجات ثقافية متنوعة، ولا يفوتها في ذلك تأكيد التفاعل مع رواد الصفحة وما بينهم، وكذلك الإشارة إلى هشاشة هذه الشبكات التي يجوز فيها محو المجموعات وما دار فيها من نقاشات وأعمال وصور بكبسة زر. وعلى الرغم من ذلك، فإن الباحثة ترى أنه لم يعد من الجائز لمؤسسات الدولة، فضلاً عن مؤسسات المجتمع المدني، تجاهل الدور الذي ربما تؤديه الشبكات الاجتماعية في تحقيق أهدافها.

علاوة على ذلك، تردّ فاطمة علي على الأفكار الرائجة التي ترى أن الشباب ينفرون من الممارسات الثقافية الجدية، فتشير إلى إحصائيات متكررة تدل على "ارتفاع نسب انتشار الكتب الإلكترونية وتداولها لدى الفئات الشابة، إضافة إلى الزيادة الملحوظة في أعداد المتابعين

لمواقع الصحف الإلكترونية، ولما توفره من تسهيلات تتصل بالتحديث الآني، وميزة الأخبار العاجلة واستخدامات المالتيميديا والمستجدات في عالم التقانة." وهي ترى أن الشباب يقرأون، لكن بطريقتهم الخاصة، "ويتبادلون في ما بينهم الكتب والمقالات الإلكترونية والقصاصات الإخبارية التي تشد انتباههم، ويدخلون في نقاش حولها"، إلاّ إنهم، بحسب رأيها، يبتعدون عن قراءة ما يتطلب نفساً أطول ممّا يتحملون.

ويتقاطع رأي علي هذا مع نتائج البحث الذي أجرته الأستاذة التونسية رجا فنّيش بشأن "القراءة الرقمية: عامل في التغييرات السوسيو ـ ثقافية لدى الباحثين التونسيين الشباب" (ص ٢٦٤)، فقد انطلقت من فكرة محورية لميشيل دو سيرتو، فحواها أن القراءة ليست فعل تلقٍّ، وإنما فعل استملاك، فتنظر إلى القراءة الرقمية بصفتها وسيلة شرطها الأول إيجاد نسخة رقمية للنص، يمكن من خلالها تأسيس مكتبة خاصة، والاحتفاظ بالأجزاء أو الفصول التي تعني الشخص، و"تفريد" النسخة التي يملكها تقطيعاً وتبويباً وتعليقاً وتداولاً. كما تشير إلى أهمية المضمون الذي نمنحه للقراءة، إذ إن الأشخاص المستطلعة آراؤهم، يلوحون، في معظمهم، كما لو أنهم استثنوا من موضوع القراءة كل ما يتعلق بالرسائل الإلكترونية ومجموعات النقاش والمنتديات والمدونات والشبكات الاجتماعية! وتتوقف فنّيش عند انتشار ظاهرة استخدام المدونة الشخصية، أو الاشتراك في المنتديات كوسيلة لنشر أعمال الباحثين، خارجاً عن سيطرة المؤسسات التقليدية البيروقراطية أو السياسية، وذلك على الرغم من بطء التحولات في عاداتنا الثقافية مقارنة بالتغييرات التقنية السريعة.

تجاوز قلق الهوية والأصالة

بعيداً عن النقد السريع والسطحي لانبهار الشباب بالتقنيات وذهولهم عن الفحوى، أكان ذلك الفحوى الحداثية ("تناقضات الحداثة في الممارسات المرئية للشباب"، لماري تريز عبد المسيح) أم الفحوى الوطنية ("دراسة سياقية مقارنة للنص المسرحي الشبابي الجزائري بين فترتَي الاستعمار والاستقلال"، لجميلة مصطفى الزقاي)، فإن بعض المقالات يتوقف عند فقدان مفهوم الهوية الجماعية في ممارسات الشباب. فعلى سبيل المثال، تكتب ميسون علي عن "ممارسات الشباب السوري المسرحية" (ص ٣٧٢) قائلة: "لم يعد البحث عن هوية المسرح همّاً، بل صار المسرح نفسه وسيلة إبداعية فنية لطرح الأسئلة عن الهوية، هوية الكتّاب أنفسهم"، وذلك مقارنة بجيل الآباء الذي "اهتم بمسألة إيجاد هوية مسرحه التي تنسجم مع تطلعاته الفكرية، كأن تكون هوية قومية عربية أو محلية." وهذا يؤدي بالتالي إلى أن تغيب عن النصوص الجديدة اهتمامات بـ "التأصيل شكلاً ومضموناً، وهمّ خلق مسرح ذي هوية عربية أو محلية"، وأن تحضر اهتمامات غير عقائدية، بالأساليب الإخراجية والديكورات والبحث عن فضاءات بديلة من العرض المسرحي، وبالهوس بالتجريب. وحدها مدارس تعمل وفق منطق عقائدي لخدمة هويات طائفية لا تزال تعتمد، بدرجات متفاوتة طبعاً، المسرح أداة للدعاوة لأيديولوجياتها، وذلك بحسب مقالة كاترين لو توما: "ممارسات المسرح واستخدامه في مدارس الشيعة في لبنان" (ص ٢٩٤).

وفي المقابل، وحتى في الشتات، فإن الباحثة يمنى شلالا في مقالتها: "أنا عربي أكثر منك: الهوية والإنتاج الثقافي في الشتات" (ص ١٣١)، تكتشف أن الفن مدخل لتحويل الشباب عن التشبث بإظهار الرموز الخارجية للهوية (كالكوفية أو خريطة فلسطين) إلى البحث عن فرديتهم، من دون أن يعني ذلك تخلياً عن القضية السياسية التي تعنيهم. أمّا مريم القزاح ("الشباب المغربي في أوروبا: نحو إسلام عصري متميز"، ص ١٠٥)، فتتوقف طويلاً جداً عند موضوع الإنتاج الموسيقي للشباب المغربي الأصل في هولندا، وكيفية استخدامهم للهيب هوب والأنواع الموسيقية المقبولة هولندياً للمطالبة بتقبلهم

في المجتمع، وبتجاوز الخطابات النابذة لهم.

وقد تكون مقالة توماس بوركهالتر: "نحن الحكومة الجديدة: كيف ينتج الموسيقيون أعمالهم في بيروت وكيف يوزعونها" (ص ٢٧٨)، هي الأكثر صراحة في التعبير عن بحث الفنانين عن هويات فردية، لا عن إجماعات جماعاتهم، وتخطيهم قلق الأصالة التي تفترض ماضياً ثابتاً وموروثاً نحو اعتبار كل ما يؤثر فيهم جزءاً من أصالتهم الخاصة، إذ إن النتاج الموسيقي هو محصلة عدد هائل من المؤثرات المرتبطة بما عاشه الفرد (الحرب؛ المدينة؛ الاختبارات الشخصية) وما تعرّض له سماعاً (الموسيقى الشعبية؛ أصوات الحرب والحشود؛ الموسيقى الإلكترونية؛ توافر موسيقى العالم رقمياً)، وهو امتزاج ذلك كله في فرد. هل يجب تعريف "أصالة" موسيقي لبناني بإدخال موسيقى إيليا بيضا مثلاً، أم بما استمع إليه فعلاً في أثناء الحرب الأهلية، وربما يكون مايكل جاكسون أو الهيفي ميتال؟ وعلى الرغم من ذلك، فإن بوركهالتر ينتهي إلى القول بأهمية المكان وعدم القدرة على إغفاله لدى تقدير العمل الموسيقي، فكل مكان، في رأيه، يوفر مروحة محددة من الاحتمال والوقائع والمحدوديات، بحيث إن الفنان لا يستطيع أن يتجاوز حقاً الأوضاع التي يفرضها مكانه عليه (بيروت مثالاً)، أو جيله، أو سيرته الذاتية. وبعبارة أخرى، إن على الفردية أن تتفاوض دائماً مع أوضاع واقعية خارجها.

التفاوض مع الواقع

على صعيد مشابه، وبحسب منى حرب ولارا ديب في مقالتهما: "الالتزام والترفيه: مساومات الشباب للسلطات الأخلاقية وأمكنة التسلية الجديدة في ضاحية بيروت" (ص ٤٢٧)، فإن الشباب يجرون مفاوضات مع السلطة الأخلاقية والعقائدية السائدة في مجتمع كالضاحية الجنوبية لبيروت مثلاً، ويسعون لتجاوز الأطر الناهية التي فرضتها سلطات أخلاقية من زمن الحرب أو سلطات دينية، اعتماداً على دفع حدود المقبول شيئاً فشيئاً من خلال فتاوى وتفسيرات متنوعة تصدر بدورها عن سلطات دينية متعددة، تتفاوت في مدى استعدادها للتعامل بإيجابية مع الواقع الجديد، ومع الحاجات الجديدة لمجتمعها. وبشكل أوسع، فإن الشباب المصريين، وبحسب جنيفر بيترسون ("الشباب المصريون وأغاني المولد"، ص ٦٢)، يجدون في أغاني المولد ممزوجة بالأصوات الكهربائية وابتكارات الدي. جي. وأشغال التوليف والخلط والتقطيع والتكرار، والتي تنتشر في الإنترنت والفايس بوك واليوتيوب والهواتف المحمولة وشتى الوسائل الرقمية، وسيلة للتعامل مع أوامر ونواهٍ متعارضة يتعين عليهم الجمع بينها: الحاجة إلى الصخب والرقص و"المزاج" والاستمتاع بالحياة، مع التشديد على "المكانة في الآخرة"، بحيث يمثل المغني في هذه الحالة قدوة في "الروشنة" والخبرة بالمتع المحرمة، من دون أن يفقد في الوقت نفسه الوصف بالاحترام والالتزام بالدين والأصول الاجتماعية والأخلاقية.

أمّا نيكولا بويغ في مقالته: "مشاهد من موسيقى المخيمات الفلسطينية في لبنان" (ص ١٥٦)، فيلاحظ أن في الإمكان تخطي الفصام ما بين الالتزام السياسي والمساحة اللاسياسية في التعبير الموسيقي لدى شباب المخيمات الفلسطينية في لبنان بحثاً عن إمكانات جديدة للتعبير عن وجودهم في العالم. غير أن مقالته تنبه أيضاً إلى المفاوضة والمساومة بين تعبيرهم عن أنفسهم، وبين الحاجة إلى أداء أغان مشحونة بالرموز والسردية الوطنية الفلسطينية، والتي يفرضها النظام الرمزي للقضية الفلسطينية والمؤسسات المتحكمة في النشاطات الثقافية في المخيمات، فتجتمع السلطنة بالأناشيد الوطنية، كما أن كلمات الهيب هوب تشير إلى مسائل الحياة اليومية في المخيمات والواقع. وينسب بويغ تنوع المخيلة الموسيقية لدى شباب المخيمات إلى تنوع الوسائط التي تربط عوالم الفلسطينيين بدفق التيارات الثقافية العالمية، من الدي. في. دي. (DVD)، والسي. دي. (CD)، المنسوخين، مروراً بالأفلام

والإنترنت والفيديو كليبات، العربية والأجنبية.

وربما يكون في هذا بعض عوامل تساعد على فهم الانتفاضات العربية القائمة حولنا: انهيار خطابات سابقة لا تزال معتمَدة رسمياً، ومبنية على مسائل الهوية الجماعية والقضايا الوطنية الكبرى، الأمر الذي يفسح المجال أمام الشباب كي يبحثوا عن تعبيرات عن مسائلهم الفردية. بيد أن بحثهم هذا لا يستطيع أن يكون حراً، بل إن النظام الاجتماعي والأخلاقي، يدفعهم إلى المساومات والمفاوضات، بينما تتسع الشقة بين ما يتيحه لهم العالم الافتراضي والقراءات الرقمية، وما يتيحه لهم الوضع الاجتماعي والرسمي المحيط بهم. وما يقوم به الشباب الآن في أنحاء العالم العربي ربما يكون بالضبط تحويل شفرة الفضاء الرقمي إلى العالم الواقعي، وكذلك المطالبة بتوسيع حدودهم من الحرية والفردية، مستعينين بما اكتسبوه من قدرة على تشبيك الأفراد والحوار والنقاش والبحث في مواجهة قوى لم تعد تعبّر عن زمنهم.

وفي الختام، تجدر الإشارة إلى نصّين في هذا الكتاب يبرران الحفاوة به ويدعمان الدعوة إلى قراءته بودّ وامتنان، وهما نص رشا الأمير "الخيل بفرسانها" (ص ٢٠٣)، عن تجربتها مع دار الجديد، ونص أحمد بيضون البديع في صوغه كما في رسالته إلى كل منا: "لا تندم على شيء قرأته" (ص ٢٠٦).

فادي العبد الله
كاتب لبناني

من قبضة بن علي إلى ثورة الياسمين: الإسلام السياسي في تونس

مجموعة من الباحثين

تقديم محمد الحداد

دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث، ط ٢، ٢٠١١. ٣٨٦ صفحة.

جاءت الثورة التونسية في مطلع سنة ٢٠١١ بمثابة خروج عن قانون سعى لتفسير التاريخ وفقاً للانقسامات العمودية، العرقية والدينية والطائفية، وهيمن على محاولات فهم أحداث العالم منذ نهاية الحرب الباردة على الأقل.

وقد طرحت الثورة التونسية أسئلة صعبة حاول أنصار الانقسامات العمودية الرد عليها بمقولات من نوع توزّع الشعب التونسي على حساسيات "الداخل والساحل"، أو الشمال والجنوب، وأشاروا إلى عودة الروح إلى ظاهرة "العروش القبلية" بعد أحداث بلدة المتلوي في حزيران/ يونيو الماضي.

ويمكن القول إن هذا الكتاب يوفر أداة مهمة للتعرف إلى خلفيات عمل التيارات الإسلامية في تونس في الفترة التي سبقت سقوط الرئيس زين العابدين بن علي في شباط/ فبراير ٢٠١١.

وقد تلخّص الهمّ الذي حرّك مقدّم الكتاب، محمد الحداد، في سؤال عن معرفة إمكان تحقيق تغيير عميق وجوهري في تونس من "دون أن تسقط في الثالوث المعتاد: انقلاب عسكري أو تدخل أجنبي أو فوضى عارمة"، على أن يبقى رهان النموذج التونسي "هو ألاّ ينتهي عاجلاً أو آجلاً إلى سيناريو إيراني أو سيناريو جزائري" (ص ٨ – ٩). والسبيل الذي سار فيه الحداد كان في الحفر في تاريخ "الإسلام السياسي" في تونس مستعيناً بدراسات عدد من الكتّاب والسياسيين المهتمين أو المنتمين إلى الحركة الإسلامية التونسية بمختلف أطيافها، فبعضهم ينتقد الحركات الإسلامية، وبعضهم الآخر قريب منها. وتعود أكثر هذه الدراسات إلى سنة ٢٠٠٨، أي قبل